الحياة الطيّبة
السنة 23
العدد 41
ربيع 2019م
أبحاث ودراسات

الخطاب الإعلاميّ وصناعة الوعي المزيّف -استراتيجيّة نقض أسس المشترك الإنسانيّ وتأسيس فلسفة التمركز على الإنسان الغربيّ-

الدكتور حسن تلموت[1]

خلاصة المقالة:

تتحدّث الدراسة عن مركزيّة مدخل تشكيل الوعي تشكيلًا سليمًا في بناء ثقافة المشترك الإنسانيّ على صعيد العلاقة بين مختلف أتباع الأديان، والأعراق، والجنسيّات دون تفريق، وكذا مركزيّة تشكيل الوعي -أيضًا- تشكيلًا مزيّفًا في تقويض دعائم هذا المشترك الإنسانيّ من جهة أخرى.

وقفت المقالة أوّل الأمر على البيان النظريّ المدخليّ لدور الإعلام ومنهجه في «التشكيل السليم للوعي»، و«التشكيل المزيّف للوعي»، ثمّ عرجت على بيان الدور العمليّ للإعلام الغربيّ في تنزيل استراتيجيّة واضحة المعالم لنقض أسس المشترك الإنسانيّ؛ وذلك بالتركيز على تحيّزات المدنيّة الغربيّة، التي كانت ثورتها المنطلقيّة مؤسَّسة على «الإناسة» أو «الأنسنة»؛ التي تعني جعل الإنسان محور أيّ تنمية أو رفاه، من حيث هو إنسان، وكيف تحوّل هذا التأسيس إلى التركيز على «الإنسان الغربيّ»؛ من حيث هو «غربيّ»؛ فلسفيًّا وجغرافيًّا، في إهمال تامّ أو عدوانيّة واضحة على قيم الثقافات الأخرى غير الغربيّة!

(1) باحث في الفكر الإسلاميّ، من المغرب.

وتختم المقالة بنداءات من قلب المدنيّة الغربيّة لمثقّفين صدحوا بوجوب إعادة بناء المؤسّسات العالميّة،بنحو يستهدف رفاه الإنسان؛ من حيث هو إنسان؛ لضمان استمرار نجاح النظام العالميّ اليوم؛ لأنّ نجاحه أصلًا كان يوم انبثق مؤسَّسًا على الاعتبار الإنسانيّ المذكور.

كلمات مفتاحيّة:

الخطاب الإعلاميّ،الوعي المزيّف، الوعي السليم، النزعة الإنسانيّة، المشترك الإنسانيّ، التحيّز، فلسفة التمركز، الإنسان الغربيّ، القيم الإنسانيّة، العلمانيّة الشموليّة.

مقدّمة:

كثيرة هي الكتابات التي تناولت قضيّة التأسيس لثقافة المشترك الإنسانيّ في الغرب؛ بل إنّ الرسائل التي ترسلها الخطابات الرسميّة المنمَّقة للحكومات الغربيّة تكاد تتمحور حول مركزيّة الإنسان، وأهمّيّة مراعاة حقّه في المعرفة والتقانة؛ كما في الإنتاجات القيميّة، من دون أي تمييز بسبب دين، أو عرق، أو ثقافة... لكنّ الحقيقة أنّ تلك الكتابات الأكاديميّة في الغرب، كما الخطابات الرسميّة، تبقى -في أحسن الأحوال وأكثرها تفاؤلًا- حبيسة خانة الأماني والشعارات التي تكذّبها الممارسات الواقعيّة؛ كما الفرص المهدرَة عمدًا، مع إمكان استثمارها لتأكيد وحدة العائلة الإنسانيّة، بما يستلزم الاشتغال على بيان المعيقات النظريّة والعمليّة التي تحول دون توظيف المشتركات الإنسانيّة، والاستعاضة عنها بالمفرِّقات.

أولًا: الإعلام بين المساهمة في تشكيل الوعي الحقيقيّ وتشكيل الوعي المزيّف:

لقد بتنا في زمن يُعدّ فيه من السذاجة النظر إلى أنّ وسائل الإعلام لا

تؤدّي -بما تستغلّه من توظيف للتقنيّات المتعدّدة للتواصل؛ بما في ذلك اللغة وعموم الخطاب-إلا الدور البريء الذي انطلقت في أوّل أمرها لأدائه؛ وهو «وصف الواقع»، بما يعنيه ذلك من تلبّس بحالة «الحياد» المطلقة التي تجعله ناقلًا للحالة غير متدخّل في توجيه المتلقّي للخطاب الإعلاميّ إلى جهة معيّنة من جهات تحديد المواقف... ذلك أنّ الإعلام اليوم تعدّت قدراته التأثيريّة إمكانات وصف الواقع إلى إمكانات تشكيله في أذهان المتلقّين، إمّا تشكيلًا حقيقيًّا وإمّا تشكيلًا مزيّفًا، وبالتالي: تشكيل الوعي؛ تبعًا لذلك بين وعي حقيقيّ أو وعي مزيّف.

وتعدّ القدرات الخارقة للإعلام في وصف الواقع وصفًا حقيقيًّا أو وصفًا مزيّفًا هي عينها الحالة المتطابقة مع إمكاناته الإنتاجيّة للوعي؛ إنتاجًا حقيقيًّا، أو إنتاجًا مزيّفًا أيضًا؛ ذلك أنّ الخبر صار، مع ما يرافقه من مؤثّرات، قادرًا على إنتاج الموقف المناسب لبنيته التحتيّة من دون اعتبار لبُنى فوقيّة تتأسّس على عناصر تكوينيّة ذاتيّة لدى المتلقّي، وبهذا، فإنّ المساهمة في تشكيل الوعي تشكيلًا حقيقيًّا؛ إنّما يتمّ بالمخاطبة المباشرة للذهن، بحيث إنّ الإعلام ينقل الأخبار مُحيلًا على مصادرها، كما إنّه في حال ساهم في توجيه مسار المتلقّي التحليليّ للأخبار والمعلومات؛ فإنّه يساهم في ذلك من خلال تحفيز الإمكانات العقليّة لهذا المتلقّي؛ للربط، والتفكيك، والبناء، والتركيب في أمانة تامّة، من دون مغافلة للّاوعي عند المتلقّي.

وبهذا، يتبيّن أنّ الإعلام يتوسّل بوسائل تحترم إنسانيّة الإنسان، حين يقصد أنْ يساهم في تشكل الوعي الإنسانيّ تشكيلًا حقيقيًّا؛ لأنّه لا يُرفق الخبر بمؤثّرات موجِّهة إلا بالقدر الوظيفيّ؛ أي بالقدر الذي تمليه عليه المهنيّة والجودة الإنتاجيّة، أمّا على المستوى المضمونيّ؛ فإنّ أهمّ تجلٍّ لعمليّة الإنتاج «للوعي الحقيقيّ» تتجلّى في كون الإعلام يرسل الخبر مباشرة إلى المتلقّي في حالة وعي تامّ، وهو وعي مؤسَّس على مضَمَّنات قيميّة في الذهن، ساعيًا إلى تحفيز عناصر التحليل أو التفكيك، وإعادة

البناء والتركيب فيه؛ الأمر الذي يجعل المتلقّي فاعلًا لا منفعلًا، مساهمًا لا متأثّرًا، وهذا يجعل استنتاجاته مبنيّة على إمكاناته الخاصّة أو على الأقلّ في غالبها، وهو ما يجعل إمكان تحمّله لمسؤوليّة ردود أفعاله المبنيّة على تلك الاستنتاجات أمرًا حتميًّا؛ كما يجعل رصد تلك الاستنتاجات وتقويمها هي وردود الأفعال المبنيّة عليها، مؤهِّلًا كافيًا لمستوى من المصداقيّة؛ وذلك حين تعميم الأحكام على مختلف أنماط التفكير المشابه.

وأمّا تشكيل الوعي الإنسانيّ تشكيلًا قسريًّا مزيّفًا يعتدي على إنسانيّة الإنسان، فهو يتأسّس على مخاتلة الخطاب الإعلاميّ لهذا الوعي، وللأسس التي عليها مدار تحليل الذهن للأخبار، إذ إنّ الإعلام في مثل هذه الحالة لا يكون ناقلًا للخبر وموصلًا إيّاه إلى ذهن المتلقّي إيصالًا بريئًا؛ ليتولّى الذهن تحليله واستنفار طاقاته المنهجيّة؛ لتحديد موقف سليم منه، وإنّما الذي يحدث هو أنّ الإعلام يشغل هذا الوعي بمرفقات للخبر غير ذي أهمّيّة، يضخّمها حتّى تطغى على جوهر الخبر المنقول، في الوقت ذاته الذي تُمرَّر القيم الوهميّة من قناة غير قادرة على التحليل أو التفكيك؛ وهي قناة اللاوعي. وتكرار هذه العمليّة هو الذي يجعل الوعي الحقيقيّ يتحوّل تدريجيًّا إلى وعي مزيَّف يتوهّم معه صاحبه أنّ عناصره هي العناصر الأصيلة لأيّ وعي أصيل!

ومثال على ذلك: ترويج وسائل الإعلام لخطاب مناهض لظاهرة التدخين -مثلًا- الذي قد يتناوبه المساران التشكيليّان السالف بيانهما:

- إمّا من خلال إقامة حوار صريح في برنامج إعلاميّ حول الآثار الصحّيّة والموقف الدينيّ... من «التدخين»؛ ما يُعدّ رسالة مباشرة إلى الذهن تساهم في تنشيط قدراته التحليليّة والنقديّة، ثمّ التركيبيّة، كما تستدعي أسس بنيته التحتيّة من أفكار، وقيم، ومسلّمات... وتنتج في نهاية المطاف وعيًا حقيقيًّا يتحمّل صاحبه مسؤوليّة اختياره. وهنا لا نقصد بالوعي الحقيقيّ أنْ تكون نتيجة هذا الخطاب الإعلاميّ هي

رفض المتلقّي «التدخين» ضرورة، فإنّنا بقولنا هذا نؤشِّر إلى فاعليّة إرغاميّة للخطاب الإعلاميّ، وإنّما نقصد أنّه أيًّا كان موقف المتلقّي سيكون موقفًا على بيّنة، مهما كان سبب موقفه؛ موافقةً على مضمون الخطاب الإعلاميّ؛ بناءً على استدعاء لقيم معيّنة كيف ما كانت تلك القيم، أو رفضًا له حتّى لو كان سبب هذا الرفض حالة ضعف أمام إغراء التدخين، وعدم قدرة على مجابهة هذا الإغراء.

- وإمّا من خلال كتابة التحذير المألوف (التدخين ضارٌّ بصحّتك. ننصحك بالابتعاد عنه) بخطّ عريض على صفحة المجلة أو على شاشة التلفاز، مصاحبًا لوصلة إشهاريّة لنوع من أنواع السجائر، لكنّ هذه الكتابة للتحذير قد يطغى على رسالتها المباشرة -حين تستهدف الوعي- رسائل أخرى تستهدف اللاوعي، من قبيل: الصور التي ترافق -عادةً- تلك الوصلات الإعلانيّة؛ بما تحمله من رسائل تشويشيّة على الوعي؛ كالبهرجة بالألوان، أو كصورة «الرجل الأبيض الوسيم القوي...» الذي يدخّن هذا النوع من السجائر... حتّى يتشكّل في «لاوعي» الإنسان واقع مزيّف يشعر في غمرة استلابه له أنّه واقع حقيقيّ، فيتصوّر أنّه ليس بينه وبين الرجل القويّ الوسيم المتحضّر... سوى أنْ يلتقط السيجارة بين شفتيه!

وتكمن خطورة تشكيل الإعلام للواقع المزيّف -الذي يتحوّل بحسب استحكامه إلى وعي مزيّف- في أنّ الإنسان لا يستطيع أنْ يتحمّل المسؤوليّة الناتجة عن «اختياره» الذي هو في الوقت نفسه «لا اختياره». وفي غالب الأحيان، فإنّ هذا الوعي المزيّف الذي تشكّله مؤسّسات الإعلام لدى المتلقّي لخطابها، لا يكون حالة نهائيّة، بل إنّ صاحبه يستفيق من تأثير وهج المرافقات الهامشيّة لجوهر الخطاب الإعلاميّ، لكنّ ذلك يكون في كثير من الأحيان بعد فوات كثير من المصالح، وبعد تقويض كثير من القيم!

ثانيًا: أساليب الإعلام في تشكيل الوعي:

1. من أساليب مساهمة الإعلام في تشكيل الوعي الحقيقيّ:

يعبّر كثير من الباحثين الذين تتقاطع مجالات اشتغالهم مع الحقل الإعلاميّ، عن معالم هذه الحقيقة؛ بكون الإعلام؛ كما ينقل الحدث، يمكنه الدفع به في اتّجاه تشكيل وعي حقيقيّ؛ بما يعرضه ممّا يدور في الواقع عبر أساليب؛ منها:

- **أسلوب عرض الحقائق:** «ويعتمد هذا الأسلوب أساسًا على إيصال الحقائق إلى أكبر عدد ممكن من الناس؛ ذلك أنّ الحقائق الملموسة تكون أقوى أثرًا وبقاءً من الأكاذيب، والتهويل، والشائعات... وتعتبر أهمّ عوامل نجاح هذا الأسلوب التوعية السياسيّة للجماهير عن طريق الشرح، والمناقشة، والإقناع»[1].

- **أسلوب البرامج الإيجابيّة:** «فالبرامج المحدّدة تحديدًا دقيقًا وعلميًّا، التي تتماشى مع واقع الجماهير، وتحقّق تطلّعاتها؛ تكون ذات تأثير كبير في الرأي العامّ، وتساهم في تغيير اتّجاهاته. ومع ذلك، فإنّ البرامج والوعود الإيجابيّة المتفائلة، قد تفقد قيمتها، وتنقلب إلى تأثير عكسي؛ ما لم يتبعها العمل والتنفيذ»[2].

- **أسلوب النقد البريء للأخبار والأفكار:** هذا الأسلوب يكون الإعلام فيه داعمًا للإمكانات النقديّة عند المتلقّي؛ وذلك بإعانته على طرح الأسئلة المنطقيّة على الخبر المنقول في وسائل الإعلام المختلفة، وهي الأسئلة التي يشترط أنْ تكون مؤسَّسة على قواعد العقل تارةً، أو ثوابت الفطرة الإنسانيّة تارةً أخرى، دعمًا لفرص تمحيص صدق الخبر من جهة، وكذا لإعانته على استثمار الخبر في استنتاجات سليمة من جهة أخرى.

(1) سفاري، ميلود؛ وآخرون: الإشاعة والرأي العام، نشر مختبر علم اجتماع الاتّصال، 2003م/1424هـ.ق.، ص131.

(2) م.ن، ص.ن.

وتتجلّى فاعليّة المتلقّي لهذا الأسلوب في انتباهه إلى دوره في تقويم مدى استجابة الأسئلة النقديّة المَسوقة إعلاميًّا على الأخبار والأفكار المختلفة -تفصيلًا ومنهجًا- لشرط الانسجام مع قواعد العقل وثوابت الفطرة الإنسانيّة المنوَّه إليها، وفي ذلك يقول ابن خلدون حين حديثه عن علاقة المتلقّي بالأخبار: «فهو محتاج إلى مآخذ متعدّدة ومعارف متنوّعة وحسن نظر وتثبّت يفضيان بصاحبهما إلى الحقّ، وينكبان به عن المزلّات والمغالط؛ لأنّ الأخبار إذا اعتمد فيها على مجرّد النقل، ولم تحكَّم أصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران والأحوال في الاجتماع الإنسانيّ، ولا قياس الغائب منها بالشاهد، والحاضر بالذاهب؛ فربّما لم يُؤمَنْ فيها من العثور، ومزلّة القدم، والحيد عن جادة الصدق، وكثيرًا ما وقع للمؤرّخين والمفسّرين وأئمّة النقل من المغالط في الحكايات والوقائع لاعتمادهم فيها على مجرّد النقل؛ غثًّا، أو سمينًا، ولم يعرضوها على أصولها، ولا قاسوها بأشباهها، ولا سبروها بمعيار الحكمة والوقوف على طبائع الكائنات، وتحكيم النظر والبصيرة في الأخبار، فَضَلُّوا عن الحقّ، وتاهوا في بيداء الوهم والغلط»[1].

- **أسلوب تحفيز العقل على الفاعليّة:** ويتجلّى ذلك بالخصوص -في عصرنا الراهن- في خلق التوازن بين تصدير الأخبار والأفكار من جهة، وفوضى الرموز والألوان والصور والحركة من جهة أخرى؛ ذلك أنّ حالة الطغيان المهول لهذه الأخيرة يعطّل العقل، ويشغله بالانبهار عن محاولة الفهم؛ إذ يفعل فيه أشبه بما يفعله تسليط أضواء مصابيح السيارات على بعض الحيوانات -في الطرق السيّارة- فتُشدّه بالأنوار عن الخطر الداهم. ويتجلّى ذلك في تعدّد المجالات التي يستهدف الإعلام توجيه وعي المتلقّي إليها، لكنّ أجلى ما يتجلّى فيه اليوم مجال التوجيه القسريّ نحو استهلاك

(1) ابن خلدون، عبد الرحمان: مقدّمة ابن خلدون، تحقيق وتعليق وتخريج: عبد الله محمد الدرويش، ط1، دمشق، دار يعرب، 2004م/1425هـ.ق.، ج1، ص93.

السلع والبضائع: مبدأ صنميّة السلعة؛ أي السيطرة على المجتمع بواسطة أشياء تفوق الحواس؛ وهي محسوسة كذلك. هذا المبدأ هو ما يبلغ تحقّقه المطلق في الاستعراض، حيث يستبدل العالم المحسوس، ويحلّ محلّه مقتطف من الصور التي توجد فوقه، والتي تقدّم نفسها على أنّها هي المحسوس بلا منازع. والاستعراض هو اللحظة التي تحقّق فيها السلعة احتلالها الكلّيّ للحياة الاجتماعيّة؛ بحيث لا تصبح العلاقة بالسلعة مرئيّة فحسب؛ بل إنّ المرء لا يعود باستطاعته أنْ يرى غيرها[1].

إنّ صورة السلعة التي تشغل بال المتلقّي تصير أقدس من وظيفيّة السلعة نفسها، ويتعدّى الأمر حتّى السلع المادّيّة إلى المنتجات ذات الصبغة الرمزيّة[2].

2. من أساليب تشكيل الإعلام للوعي المزيّف:

على الرغم من أنّ للإعلام سلطة مساهمة في صناعة الوعي الحقيقيّ، ولكنّه يمكن أن يصير أداةً لصناعة «وعي مزيّف» وغير حقيقيّ أيضًا، إذا كان ينطلق من خلفيّات قيميّة منحازة.

ومن مظاهر خطورة صناعة الوعي المزيّف أنّه قد يستهلك الفرد؛ كما يستهلك الجماعة والأمّة، فيحيد بها عن مجال الفعل الحقيقيّ إلى مجال الانفعال المزيّف أيضًا[3]، وتلك سمة باتت واضحة في الإعلام الغربيّ! ولأجل تحقيق هذا الهدف، فإنّ الإعلام الغربيّ ما فتئ يسعى جاهدًا

(1) عبد الحميد، شاكر: «عصر الصورة؛ السلبيّات والإيجابيّات»، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، يناير 2005م، العدد311،ص112.

(2) وهو ما سنتوقّف عنده في تفكيك الدكتور عبد الوهاب المسيري لدور الصورة في شَغل المتلقّي عن تتبّع حتّى الأخبار التي يَفترض فيها العقل نقلًا حياديًّا، مدخله استحالة تدخُّل مقدِّمها فيها؛ باعتباره ناقلًا لا معلّقًا.

(3) يصلح للتمثيل لهذه الفكرة باشتغال شعوب ما بعد ثورات الربيع العربيّ-وغيرهم- بصراع المواقع عن الصراع الحقيقيّ الذي كان شرارة ثوراتهم؛ وهو صراعهم ضدّ الاستبداد والتخلّف، بحيث إنّه لا يخفى دور الإعلام في تأجيج الجماهير ضدّ أنظمة المراحل الانتقاليّة للثورات؛ وذلك بتضخيمه لحالة استمرار تردّي بعض الخدمات التي يعلم كلّ عاقل أنّ تقويمها يحتاج إلى إمكانات يُعدّ الزمن عصبها، وكذا بإثارة نزعات التقاطب الطائفيّ تارة، والحزبيّ الإيديولوجيّ تارة أخرى...

لتشكيل الوعي الإنسانيّ حسب حاجاته، سالكًا في سبيل ذلك مسالك قذرة لا تؤمن بقيم، ولا تعترف بأخلاق؛ ومن هذه الأساليب[1]:

-**أسلوب التكرار والملاحقة:** حيث تعتبر الدعاية عاملًا رئيسًا في بروز هتلر؛ بوصفه زعيمًا ألمانيًّا، ذا شهرة كبيرة، فكانت الدعاية الألمانيّة تقوم على هذا الأسلوب، وتؤمن به أسلوبًا مثاليًّا لمخاطبة الجماهير. وقد وصف «جوبلر»، وزير الدعاية التي صنعت سمعة شعبيّة واسعة لهتلر، هذا الأسلوب الدعائيّ بقوله: «إنّ سرّ الدعاية الفعّالة يكمن، لا في إذاعة بيانات تتناول آلاف الأشياء، ولكنْ في التركيز على بضع حقائق فقط، وتوجيه آذان الناسوأبصارهم إليها مرارًا وتكرارًا»[2]، وبخاصّة عندما تتّجه المخاطبة إلى إثارة العواطف، لا إلى العقل.

-**أسلوب الإثارة العاطفيّة:** تعتمد الدعاية أساسًا على إثارة العواطف، لا على المناقشة والإقناع. وإثارة العواطف أسلوب كثير الاستعمال؛ خصوصًا لدى الأنظمة الاستبداديّة. وتعتمد الإثارة العاطفيّة مختلف أساليب الغشّ، والكذب، والتضليل، والخداع... وما زالت كثير من أجهزة الدعاية تتُّبعه، بل تمعن في اتِّباعه؛ وبخاصّة في الترويج للقضايا غير العادلة، حيث تأتي الصهيونيّة في مقدِّمة هذه الأجهزة!

-**أسلوب تحويل انتباه الجماهير:** قد يصبح من الصعب في بعض الأحيان معارضة الرأي السائد؛ ذلك أنّ معارضة تيّار جارف من الرأي العامّ بعد تكوينه، لا يأتي بنتيجة ما؛ حتّى لو كان الرأي العامّ على خطأ، فيعمد السياسيّون وأجهزة الإعلام في مثل هذه الحالات إلى تحويل انتباه الجماهير إلى موضوع أو قضيّة أخرى تماثل الموضوع الآخر من حيث الأهمّيّة أو أكثر منه، وهكذا يتمّ صرف الجماهير عن ذلك الموضوع.

(1) انظر: سفاري؛ وآخرون، الإشاعة والرأي العام،م.س.، ص131، 135-136.
(2) م.ن، ص131.

-**أسلوب الشائعات:** وهو لا يتقيّد بمعايير الصدق الموضوعيّ التي يلزم أن يلتزم بها الإعلام؛ كالصدق، والموضوعيّة، والنزاهة، والدقّة... كما إنّ فترات الحروب والأزمات؛ وبخاصّة السياسيّة والاقتصاديّة منها، يصعب فيها وجود وسائل اتّصال قادرة على تقديم كلّ صدق أو حقيقة، فالشائعات بإمكانها التوغّل في صفوف الرأي العامّ، والانتشار بسهولة بين الأفراد المكوّنين له، والتأثير فيهم، وتغيير اتّجاهاتهم، بل قد يساهم هؤلاء الأفراد ذاتهم في نشر الإشاعة، وإثرائها بزيادات وشروح إضافيّة من عندهم، من دون وعي منهم بما يفعلون!

بهذه الأساليب وغيرها يتحقّق مقصود بعيد المدى؛ مقصد التداخل، حيث تعتبر حالة التماهي الوهميّ مع الغرب المدخل الطبيعيّ نحو التحلّل من الخصائص المميّزة، ويبدأ ذلك حين يفقد الإنسان المنتمي إلى الحضارة العربيّة الإسلاميّة إحساسه ببعدي الزمان والمكان؛ أي هذين البعدين اللذين يختزلان التاريخ والجغرافيا والحضارة والقيم الثقافيّة المميّزة.

ولذا؛ «لا يمكن ربط تطوّر المجتمع المدنيّ باستخدام التقنيّات الجديدة (فحسب)؛ إذ إنّ العولمة هي نتيجة الحداثة، وبالتالي؛ فإنّ تأطيرها في هذا السياق سيسهّل فهمنا لتقنيّات المعلومات القديمة والحديثة وانعكاساتها على المجتمعات العربيّة. والأساس في فهم الحداثة هو فهم ذلك التباعد على مستوى الزمان والمكان (الحداثة وتسرّع الزمن من خلال تكنولوجيا الاتّصال؛ لتعطي لنا انطباعًا بتقلّص المكان)، فنظنّ أنّ القاهرة هي لندن؛ لأنّنا نتحدّث عبر الهاتف أو الإنترنت في ثوانٍ معدودات، فنحسّو كأنّنا في المكان ذاته. هذا الإحساس يؤدّي إلى الحدّ من تفاعلنا وجهًا لوجه لصالح التفاعل عن بعد، وإخراج العديد من العلاقات الاجتماعيّة من سياقها المحلّيّ؛ لإدراجها في سياق عمليّ جديد، وعندما نرى حدثًا ما يتكشّف عبر شاشات التلفاز، نعتقد بأنّه يظهر أمام أعيننا، ونفسّره وفق إطارنا المرجعي،

أو وفق الإطار الذي يقدّمه لنا المراسلون والمصوّرون...»[1].

ومن هنا تبتدئ الأدوار الفاعلة للإعلام في تشكيل وعي مزيّف، إذ إنّ تفسير الأحداث وفق الإطار المرجعيّ للمتلقّي غير الغربيّ قد يؤدّي إلى مصادمة المصالح العليا للغرب الغالب، الذي يريد أنْ ينمِّط الأفهام الإنسانيّة تنميطًا يضمن له استمرار الغلبة؛ كما إنّ الأمر في الوقت ذاته يصادم حالة الارتهان التي يعيشها العقل غير الغربيّ عمومًا، والعربيّ والإسلاميّ خصوصًا، والتي تَضمنله عدم فرض تكلفة إضافيّة من بذل المجهود للمساهمة في الإنتاج الإنسانيّ العامّ؛ كما تُقنعه بالرضا من الغنيمة بالسلامة!

هذا الوضع أدّى في نهاية الأمر إلى الانحراف بنزعة «الأنسنة» في الفكر والممارسة الغربيّة؛ من أفقها الإنسانيّ الرحب إلى أفق ضيّق جدًّا، وحوّلها من التحرّك في مساحة دعم «المشترك» إلى مساحات متناثرة هي «جزر» متناثرة لا رابط بينها، تغذّيها «الطائفيّة» وثقافة الانحياز أحايين كثيرة، حتّى بلغ ذلك مستوًى غير مسبوق في تعميم القيم الخاصّة، وإضفاء طابع الدوليّة عليها.

ثالثًا: الخطاب الإعلاميّ ونزعة «التمركز على الإنسان الغربيّ»:

إنّ تمركز «النزعة الإنسانيّة» على «الإنسان الغربيّ»، مع ما يعنيه ذلك من إلغاء وجود «الآخر» من مساحة الوعي؛ كما الواقع، ومع ما يعنيه من دفن أيّ محاولة لبناء «مشترك إنسانيّ» دينيّ أو قيميّ أيضًا، احتاج منذ بداية تشكّل أطره المرجعيّة إلى خلق حالة تعميميّة، حتّى يصير رأيًا غربيًّا عامًّا، عوض انحساره في مساحة التنظير الفلسفيّ النخبويّ؛ ما دفع إلى حالة «زواج كاثوليكيّ» بين «الخلفيّة الفلسفيّة» و«الأخطبوط الإعلاميّ».

(1) فندي، مأمون: حروب كلاميّة الإعلام والسياسة في العالم العربيّ، ط1، بيروت، دار الساقي، 2008م، ص247

وذلك أنّ مسؤوليّة «الرجل الأبيض» و«الحضارة العالميّة» هي ما يبرّر السعي نحو الهيمنة وطمس هويّة «الآخر» ضمن مفاهيم أنتجتها لغة وأدوات ساعية إلى تشكيل الوعي المزيّف، الذي يتيح للغرب الهيمنة والانفراد بالقرار العالميّ في لحظة مباغِتة اقتنع فيها الوعي العالميّ أنّ جميع منتجات المدنيّة الغربيّة قد استحقّت صفة العالميّة والدوليّة، ولعلّ هذه اللحظة المباغتة قد تجلّت صورتها في القاموس الإعلاميّ الذي توظّفه وسائل الإعلام العربيّة والإسلاميّة اليوم عن طواعيّة وبدون إكراه، فالإنتاجات الثقافيّة المحلّيّة (الأفلام والمسلسلات، والبرامج الوثائقيّة...) هي «إنتاجات عربيّة»، في مقابل الإنتاجات الثقافيّة «الأوروبيّة» أو «الأمريكيّة» -مثلًا- التي توصم في سياق المقابلة بكونها البرامج «الدوليّة»؛ إذ صار طبيعيًّا أن يُرى أو يُسمع المذيع في مجمل القنوات التلفزيّة، أو الإذاعيّة العربيّة، يعلن عن «المسلسل أو الفيلم العربيّ» أو أيّ إنتاج ثقافيّ محلّيّ، فيسمّيه باسمه، حتّى إذا أراد أنْ يعلن عن نظير له «أمريكيّ» أو «أوروبيّ»، أعلن عنه بصفة «الفيلم، أو البرنامج... الدوليّ»!! في إشارة صريحة إلى محلّيّة الثقافة العربيّة وعالميّة الثقافة الغربيّة. وقد صار هذا الأمر من الانتشار إلى درجة صار مقطوعًا به على مستوى التداول على الأقلّ!

لقد جُنّدت جهود كبيرة، وصيغت مخطّطات «استراتيجيّة» بعيدة المدى للوصول إلى ما يمكن أنْ يطلق عليه «البناء الإعلاميّ لوعي عالميّ مزيّف»، عن طريق مجموعة خطوات، الجامع بينها هو الانتهاء إلى خلق حالة قبول -طوعيّ أو قسريّ- بالتحوّل من «ذات حضاريّة» تساهم في بناء «المشترك الإنسانيّ» بالإنتاج الحضاريّ الخاصّ، إلى صورة مشوّهة لـ«الآخر»، بحيث تصير هذه «الذات الحضاريّة»، لا ترى نفسها إلا من خلال تسليط قيم الآخر عليها، وتقويم إنتاجاتها على قاعدة مدى انتحالها لمواصفات هذا الآخر.

ومثال على منهجيّة اشتغال الإعلام على «البناء الإعلاميّ لوعي عالميّ مزيّف» هو ما ذكره عبد الوهاب المسيري رحمه الله من تعميم (الأنموذج الغربيّ العلمانيّ) الذي يعدّ مرحلة وسيطة من معالمها الكلّيّة والتفصيليّة؛ ذلك أنّ «الإعلام من أهمّ آليّات نشر هذا الأنموذج العلمانيّ، ويتمّ هذا من خلال عدّة قنوات؛ فعالم الإنسان المركّب يتحوّل إلى ذرّات متناثرة تتحرّك بلا هدف ولا غاية، في حيّز لازمان فيه، ولا إنسان، ولا مرجعيّات متجاوزة، فتتحوّل الأخبار (على سبيل المثال) إلى حقائق متناثرة لا يربطها رابط، توجد خارج التاريخ... ويتحدّث المذيعون بسرعة غير إنسانيّة، وتصبح القيمة الكبرى هي رصد الأحداث رصدًا مجرّدًا...ومن هنا، يتمّ اعتماد المذيعة الحسناء ذات الجاذبيّة...؛ بدلا من المذيع الأب، موضع الثّقة والاحترام... ويمكن أنْ نسمّي هذا تطبيع الإباحيّة والعنف، وهي عمليّة شاملة تقوم بها الصحافة والتلفزيون والسينما من أجل تحييد الإباحيّة والعنف، بحيث تصبح أمرًا طبيعيًّا وعاديًّا(وهذا أمر طبيعي ومتوقّع؛ طالما كانت المرجعيّة النهائيّة طبيعيّة مادّيّة)، وهناك برامج في التلفزيونات الغربيّة يتحدّث أثناءها البشر عن أخصّ خصوصيّاتهم؛ وكأنّها جزء من رقعة الحياة العامّة، ومن ثمّ يصبح الجوّاني برّانيًّا، وتصبح الأعماق سطحًا أملس لامعًا، ويصبح شيئًا (ظريفًا) بين الأشياء المادّيّة الطبيعيّة، ليست له أيّة أبعاد، ولا يتّسم بأيّ تركيب»[1].

إنّه مخطّط صناعة الوعي المزيّف في بعض تفاصيله التي تؤهّل لمرحلة بعدها يصير الإعلام فيها الأداة العمليّة للترويج للأنموذج الغربيّ؛ باعتباره الأنموذج الأرقى، «وأفلام رعاة البقر (بالإنجليزية: cowboywestern، وستيرنكاوبوي) تقوم بعلمنة الوجدان بشكل كامل، فبطل الفيلم هو الرائد (الرجل الأبيض) الذي يذهب إلى البرّيّة (أرض بلا شعب)؛ ليكتشفها،

(1) المسيري، عبد الوهاب: العلمانيّة الجزئيّة والعلمانيّة الشاملة، ط1، بيروت، دار الشروق، 1423هـ.ق./2002م، ج2، ص134.

ويفتحها، ويستقرّ فيها، وليس في يده سوى مسدّسه الذي يستخدمه في تطهير الأرض من سكّانها الأصليّين... وهي صفات لا علاقة لها بأيّة منظومة قيميّة؛ دينيّة كانت، أوأخلاقيّة، أوإنسانيّة. ثمّ يظهر أصحاب الأرض الأصليّون؛ هؤلاء (الإرهابيّون) الذين لا يتركون الكاوبوي وشأنه يرعى أبقاره ويبني مزرعته (أي مستوطنته) على أرضهم وأرض أجدادهم، بل أحيانًا نجدهم يختطفون حبيبته البيضاء البريئة عنوة، دون سبب واضح! وعادة ما يقوم الكاوبوي بحصدهم حصدًا برصاصه؛ دفاعًا عن مزرعته الشاسعة الثريّة، وعن عرض فتاته البيضاء البريئة، وعن حقوقه وحقوقها المطلقة. ونستمتع بكلّ هذا دون أنْ ندرك أنّ الكاوبوي هو في واقع الأمر الرائد الصهيونيّ (الحالوتس)، وأنّه الإنسان الأبيض الإمبرياليّ (الاستعماريّ الاستيطانيّ الاحتلاليّ) الذي نهب ديارنا وثرواتنا وأذلّنا، وأنّ الهنود (الذين تتمّ إبادتهم) هم نحن؛ العرب، والفلسطينيون، وأنّ البرّيّة هي في واقع الأمر العالم الثالث بأسره؛ أرض بلا شعب، أو شعب ينظر إليه (الإنسان الغربيّ) من خلال رؤيته العلمانيّة الإمبرياليّة الشاملة، بلا وعي ولا إدراك من جانبنا، فقد جاءتنا مغلّفة تغليفًا أنيقًا لذيذًا، جزءًا عضويًّا كامنًا في بنية فيلم لذيذ مسلّ!»[1].

ونستمرّ في القياس وفق المنهج نفسه الذي ساقه المسيري رَحِمَهُ اللَّهُ في تفكيكه لآليّات اشتغال الإعلام في ترويج «العلمانيّة الشاملة»، التي ترى منظومة اللاقيم الغربيّة منظومةً مؤهَّلة للانتشار والسيادة، ونذكر في هذا المقام صورة «الرجل الخارق» الذي -عادة- ما يكون ذا وجه أبيض وعينين خضراوين، وبنية جسديّة قويّة. وتتظافر هذه الأوصاف لتشكّل في وعي المتلقّي «الصورة الأنموذجيّة» للرجل القويّ الذي نراه في السينما الغربيّة/ الدوليّة! تارة يحارب الأشرار القادمين من الفضاء، وتارة يقاتل الجيوش الجرّارة، فيهزمها وحده...!والناظم بين هذه المشاهد هي القوّة الخارقة

(1) المسيري، العلمانيّة الجزئيّة والعلمانيّة الشاملة، م.س.، ص137.

لهذا «السوبرمان»، والصورة النمطيّة التي يظهر بها على تعدّد شخصيّاته، فهو الرجل الذي لا يُقهَر، وهو الذي ينبغي أنْ تدين له الأرض، كما إنّقيمه التي يدافع عنها هي القيم التي ينبغي أنْ تسود.

كما إنّ الخطابات التي تحضّ على الحقد والكراهيّة، والتي تبّثها وسائل الإعلام الغربيّة، تلعب دورًا أساسًا في تقوية نزعة الانعزال والسعي إلى الهيمنة على العالم، الذي قد تتهدّد مصالح الإنسان الغربيّ فيه؛ بفعل تنوّع مكوّناته، في حال سادت ثقافة المساواة والتشارك على قاعدة الإنسانيّة.»لقد بات المواطن (الغربيّ) يسمع في كلّ ثاني نشرة أخبار، من أفواه أولئك الذين ينبغي عليهم أنْ يدافعوا عن مصلحته، أنّ سبب محنته لا يقع على عاتقهم؛ بل يقع على عاتق المنافسة الأجنبيّة. ولا مراء في أنّ ثمّة خطوة قصيرة واحدة فقط تقود من هذا التبرير الخطأ -من وجهة النظر الاقتصاديّة- إلى العداء المكشوف لكلّ ما هو غريب. وهكذا نلاحظ أنّ هناك ملايين من أبناء الطبقة الوسطى الخائفة، قد صاروا، منذ أمد ليس بالقصير، يعتقدون أنّ خلاصهم يكمن في كراهيّة الغرباء، وفي الانكفاء على الذات، والعزلة عن السوق العالميّة»[1].

إنّ الهيمنة الإعلاميّة للمؤسّسات الإعلاميّة الغربيّة، وقدرتها على الاستقطاب، ونجاحها الفعليّ على نطاق واسع، يجعل المراقب يتساءل: لِمَ استطاع أسلوب الحياة السائد في كاليفورنيا أنْ يغزو العالم؟ ولِمَ انتصر (والت ديزني) على كلّ شيء؟ يفسّر (مايكل آيزنر) عملاق صناعة الإعلام ورئيس مجلس إدارة شركة والت ديزني هذا الأمر على النحو التالي: «تتميّز وسائل الإعلام الأمريكيّة بالتنوّع، وهي بهذا تتلاءم مع الإمكانات والخيارات وطرق التعبير الفرديّة المختلفة... يعتقد باربير(مدير مركز والت وايتمان في جامعة روتغيرز في ولاية نيوجيرسي) أنّ سبب نجاح استعمار والت

(1) مارتن، هانس بيتر؛ شومان، هارالد: «فخ العولمة، الاعتداء على الديموقراطيّة والرفاهيّة»، ترجمة: عدنان عباس علي، مراجعة وتقديم: رمزي زكي، سلسلة عالم المعرفة، م.س.، أكتوبر 1998م، العدد238، ص33.

ديزني للثقافة العالميّة يكمن، حسب ما يعتقد، في ظاهرة قديمة قدم الحضارة؛ إنّها المنافسة بين الشاقّ والسهل، بين البطيء والسريع، بين المعقّد والبسيط؛ فكلّ أوّل من هذه الأزواج يرتبط بنتاج ثقافيّ يدعو إلى الإعجاب والإكبار، أمّا كلّ ثانٍ من هذه الأزواج فإنّه يتلاءم مع لهونا وتعبنا وخمولنا. إنّ(ديزني)، و(ماك دونالدز)، و(mtv)، تروّج لما هو سهل وسريع وبسيط. وسواء أكان (آيزر)و(باريز) على صواب في تفسير أسباب انتصار هوليوود، أو كان عكس ذلك، فإنّ حصيلة هذا النجاح بيّنة واضحة يراها المرء في أرجاء المعمورة، فزغاريد (مادونا)، و(مايكل جاكسون) صارت أذان النظام العالميّ الجديد، كما يقول «كاتان باركليز» الباحث الكاليفورني في شؤون المستقبل»[1].

إنّها جهود إعلاميّة مضنية ترمي إلى خلق وعي مزيّف، مظهره الخارجيّ استقرار حالة التفوّق في ذهن الإنسان الغربيّ، والسعى إلى نشر الإحساس بتفوّق منظومته القيميّة، في مقابل إفراغ غير الغربيّ من إحساسه بإنسانيّته، ومن انتمائه الحضاريّ. «ومن هنا، فإنّ مؤسّسات الإعلام العملاقة... قدصارت مجهّزة على أفضل نحو للنهوض بأعباء «Tittytainment» (بطالة+ترفيه=ثورة) التي أمعن التفكير فيها موجّهو العالم الذين جمعت شملهم مؤسّسة جورباتشوف الخيريّة في سان فرانسيسكو، فما تبثّه هذه المؤسّسات من صور هو الذي يدغدغ الأحلام»[2].

لقد بات هذا السعي إلى الهيمنة، وإلى تأسيس صورة نهائيّة لقَدَر العالم -بكونه لا يملك إلا أنْ يكون رهينة للتوجّه الغربيّ المعاصر الذي يرى في التمركز على الإنسان الغربيّ، دون قيود، والمفاصل للدين والرافض له- هو المدخل الوحيد الذي يجعلنا نفهم مبرّر اتّخاذ الغرب لأيّ مواقف عدائيّة وعدوانيّة في سبيل الحفاظ على وضع «نهاية التاريخ وخاتم البشر»[3]،

(1) مارتن؛ شومان،»فخ العولمة، الاعتداء على الديموقراطيّة والرفاهيّة»، م.س.، ص40-41.
(2) م.ن.، ص41.
(3) انظر: فوكو ياما، فرانسيس: «نهاية التاريخ وخاتم البشر»، ترجمة: حسين أحمد أمين، ط1، القاهرة،

ودعم ذلك بحركيّة إعلاميّة هائلة تستهدف مسخ الوعي، وصناعة تاريخ وواقع مزيّف، يصير هو الحقيقة الإجماليّة الوحيدة الغارقة في ركام من التفاصيل غير متناهي الحركيّة، وغير دالّ في صورته على شيء، في الوقت الذي يدفع في اتّجاه نتائج كارثيّة، وهذا ما نجده في المشاريع الإعلاميّة الضخمة التي أقامتها دول غربيّة؛ مثل الولايات المتحدة الأمريكية، في المنطقة العربيّة الإسلاميّة؛ إذ إنّها هي الدافع المركزيّ -في الغالب- نحو استدرار عداء أبناء الحضارات الأخرى -والحضارة الإسلامية على رأسها-، ولذلك لا غرابة في أنْ نجد اليوم من عقلاء الغرب مَنْ يبحث بمبدئيّة عن أسباب الكراهيّة التي صارت متفشّية في العالم تجاه المدنيّة الغربيّة، فهذا الفيلسوف النمساويّ المعاصر(هانس كوكلر) يجري في كتابه «المسلمون والغرب من الصراع إلى الحوار» مقاربة للموضوع بنوع من الجرأة الأدبيّة، فيقول: «تتكوّن النصوص السياسيّة التي نشرت حتّى اليوم عن النظام العالميّ الجديد -إلى حدّ كبير- من عبارات فارغة؛ ما لم تكنْ ذات طبيعة سرّيّة،فالشعارات التي تُطلَق عن الديموقراطيّة، والأمن الجماعيّ، وترويج التجارة العالميّة الحرّة... لا تعدو أنْ تتغنّى بأهداف ومُثُل غامضة تتظاهر جميع الدول بتأييدها. وعلاوةً على ذلك، فإنّ الطموح الكامن وراء عبارة (النظام العالميّ الجديد) ليس جديدًا، فقد سبق الإعراب عنه في شعارات حول (عالم آمن للديموقراطيّة)، و(عالم حرّ)، و(عالم واحد)، وما إلى ذلك، وقد عُبِّر عن هذا الطموح بوجه خاصّ، من حيث كونه دورًا أخلاقيًّا رائدًا تقوم به (الولايات المتّحدة الأمريكيّة) والرئيس (كارتر) الذي كان يلجأ غالبًا، وبشكل ملحوظ، إلى استخدام مصطلحات تصبو إلى المثاليّة. وقد نُسِجَت العبارات الطنّانة التي صاحبت تأسيس الأمم المتّحدة على هذا المنوال أيضًا. أمّا كيف ترى الدولة العظمى -الولايات المتّحدة الأمريكيّة- النظام العالميّ الجديد فعلًا، فهذا أقلّ وضوحًا في التصريحات التي تُوجَّه

مركز الأهرام للترجمة والنشر، 1413هـ.ق./1993م.

في الاحتفالات إلى الجماهير، منه في الوثائق التي لا يُراد نشرها؛ كما في وثيقة (البنتاغون) السرّيّة الاستراتيجيّة التي تصوغ المفهوم الرئيس الذي سيسود بعد الحرب الباردة على أنّه سيطرة محسّنة من قِبَل دولة واحدة. وفي هذا السياق، يُنظَر إلى المهمّة الحاسمة لسياسة الولايات المتّحدة الأمريكيّة الدفاعيّة على أنّها المحافظة على القوّة العسكريّة اللازمة لردع أيّة دولة أو مجموعة من الدول عن تحدّي صدارة الولايات المتّحدة»[1].

يستمر«هانس كوكلر» في تفكيك بنية الخطاب الإعلاميّ الغربيّ المزدوج، المنصبّ حول مستقبل العالم، في مرافعة مسهبة، الناظم بين تفاصيلها هو بيان «خفاء» الهدف الحقيقيّ من تسويق الأنموذج «الغربي» عمومًا، و«الأمريكيّ» خصوصًا، بمنع إمكانيّة التعامل النِدّي مع أيّ حضارة قائمة، ولو كان هذا المنع من أدواته اللازمة تطويع القوانين المنظّمة للمؤسّسات الدوليّة، أوالمراهنة على القوّة العسكريّة، وفي مقابل هذا «الخفاء» لهذه النّيّة المبيّتة، يتمّالتوظيف الإعلامي لشعارات «معلّبة» جاهزة للاستهلاك، عن «الحرّيّة»، و«الديموقراطيّة»، و«الرخاء»...

وإذ كان التجاء «الدول العظمى» إلى سياسة «القوّة العسكريّة»، تهديدًا أو تفعيلًا للتطويع والهيمنة على «الآخر»، أمرًا له شواهده؛ فإنّ التطويع عبر آليّات المؤسّسات الدوليّة هو أمر يحتاج إلى بيان، خصوصًا عندما لا تقف رغبة «الهيمنة» و«إلغاء الآخر أمام أيّ حدود؛ بما في ذلك الحدود الأخلاقيّة.

وتلجأ «المدنيّة السائدة» إلى استعمال الوسائل «القذرة» المناقضة لـ«حقوق الإنسان»؛ إذ «يكون الهدف من العقوبات الاقتصاديّة إلحاق الأذى مباشرة وعمدًا بالمدنيّين؛ من أجل إجبار الحكومة على تغيير سلوكها... من الناحية الأخلاقيّة، فإنّ للعقوبات الاقتصاديّة الخصائص

(1) كوكلر، هانس: المسلمون والغرب من الصراع إلى الحوار، ترجمة: حميد لشهب، ط1، منشورات«TOP EDITION»،1430هـ.ق./2009م، ص24-25.

نفسها في القصف لإحداث الرعب، حيث يؤخذ السكان المدنيّون كرهائن في إطار الاستراتيجيّة الأمنيّة لسياسة القوّة. ومن البديهي أنّ مثل هذا الاستغلال السياسيّ الذرائعيّ للإنسان، لا ينسجم مع وضعه كإنسان مستقلّ، مصون الحقّ، وتتنافى مع وضعه كمخلوق ذي شخصيّة خليقة بالكرامة الإنسانيّة...»[1].

وفي سياق وصف الحالة «المكهربة» التي تنتاب العلاقة بين «المدنيّة الغربيّة» وبين «العالم العربيّ الإسلاميّ»، يبيّن «هانس كوكلر» أن الأمر -للأسف- صار حالة متجاوزة للتنظير والممارسة على المستوى الرسميّ! بل تجاوز ذلك إلى حالة من السعي إلى الهيمنة المؤَسَّسة على التضمين غير الواعي في أذهان الناس في«الغرب»؛ وذلك عبر حركيّة وفعّاليّة إعلاميّة منقطعة النظير.

ويرفق «كوكلر» التوصيف بالسرد الكرونولوجيّ للظاهرة -حسب تقديره- إذ لا يربطها هو بانحراف مسار «النزعة الإنسيّة»؛ وإنّما بغياب العدوّ الذي تستمدّ منه المدنيّة الغربيّة «الوقود الإيديولوجيّ» لاستمرار هيمنتها، فـ«منذ نهاية الشيوعيّة، وانهيار صورة الصديق -العدو- التي كانت مصاحبة له، أصبح (الإسلام) من زوايا مختلفة معوّضًا لصورة العدوّ القديمة التي يحاول الغرب من خلالها فرض هيمنته على العالم، وهذا الوضع العالميّ الجديد، حيث يقدَّم «الإسلام» خطرًا على الهويّة الغربيّة وأمنها، وتؤثّر مباشرة على علاقة الإسلام والمسيحيّة في أوروبا. وتُستعمل أطروحة (صدام الحضارات) لـصمويل هنتنكتون؛ كتبرير للإبقاء على الأحكام المسبقة. ويؤدّي وجود عدد كبير من المسلمين -أغلبيّتهم مهاجرين- أكثر فأكثر إلى رفضهم، وفي غالب الأحيان إلى ردود فعل معادية لهم، ويُقدَّم هؤلاء المسلمون على أنّهم يشكّلون خطرًا مستمرًّا على التضامن الاجتماعيّ والثقافيّ لأوروبا. وفي مثل هذه الظروف، فإنّه من الصعب جدًّا

(1) كوكلر، المسلمون والغرب من الصراع إلى الحوار، م.س.، ص66.

الحفاظ على مناخ حوار وتعاون وتقويته»[1].

ويرى «كوكلر» أنّ اعتبار أطروحة (هنتنكتون) المتعلّقة بصدام الحضارات أساس نظرة الغرب إلى الإسلام والمسلمين، لا يخدم في المقام الأوّل سوى مصالح الذين يصرّون على استمرار الوصاية على العالم الإسلاميّ وتبعيّته، وهذا -في رأيه- لا يدعم سُبُل التعايش، كما لا يحقّق للغرب سُبُل الهيمنة؛ بل هو المبرّر المركزيّ لنشوء حالة من عودة المسلمين إلى التمسّك بخيارهم الحضاريّ؛ حيث «إنّ تعلّق المسلمين بهويّتهم الدينيّة الحضاريّة هي صيرورة، إنْ لم تكنْ ديناميّة العولمة وادّعاء كونيّة الحضارة الغربيّة (المسيحيّة في غالبها) هي سببها، فإنّها قد ساهمت في تقويتها... وأوّل حدث في هذا الإطار كان الثورة الإيرانيّة عام1979، والتي حدثت على الرغم من -أو بالأحرى جرّاء- قيام الشاه الإيرانيّ(رضا بهلوي) بتطبيق برنامج تحديث غربيّ في بلاده. وفيما يتعلّق بالوقت الحاضر، يمكن الإشارة -مثلًا- إلى التطويرات التي تقع حاليًا في تركيا؛ فالرجوع إلى الهويّة المسلمة لهذا البلد، وإعادة إحياء الإرث العثمانيّ في تركيا، يحدث على الرغم العلمانيّة وتتبّع النموذج الغربي منذ سبعين سنة»[2].

هذا الكلام من «كوكلر» يتقاطع مع ما نقلناه سلفًا من تحليلات لمفكّرين عرب؛ وهو شاهد على تقاطعات التفسيرات للظواهر بين «العقل العربيّ الإسلاميّ»، وبين «العقل الغربيّ» في هذا الصدد.

خلاصة:

بناءً على ما تقدّم، لا بدّ لنا من الوعي بخطورة مسلك «التغريب»، الساعيإلى الهيمنة وسيادة الأنموذج الواحد؛ ولو تحوّل إلى حالة وعي جمعيّ! لأنّ هذا المسار في الوقت الذي يقتل أيّ إمكانيّة للحوار على

(1) م.ن.، ص128.

(2) كوكلر، المسلمون والغرب من الصراع إلى الحوار، م.س.، ص145.

أرضيّة «المشترك الإنسانيّ»، فإنّه في الآن ذاته يحمل عناصر فشله في بنيته، إذ إنّه يدفع في الاتّجاه المعاكس لمراده، فيحمل غير الإنسان الغربيّ إلى تبنّي رؤيته الحضاريّة، من خلال تصوّر يُشكّل في وعيه بأنّ هذه الرؤية الحضاريّة مُهدَّدة ومستهدَفة، الأمر الذي يُقوّي سُبُل الاستمرار والانتشار لهذه الهويّة التي سعى «الغرب» إلى تسويقها؛ باعتبارها المعادل المناقض لرؤيته الحضاريّة. وهذا من الناحية الموضوعيّة متفهَّم؛ باعتباره نتيجة «سوسيولوجيّة» متوقَّعة، لكنّ غير المتوقّع هو أنْ تتحوّل حالة الانحياز هذه -للخيار الحضاريّ الذاتيّ- إلى حالة تمركز مقابلة على الذات! الأمر الذي يؤدّي إلى استمرار حالة العداء المفرط بين الطرفين، وهذا ما يلاحظ اليوم من خلال حركات التطرّف التي لا ترى في الغرب سوى ساحة «جهاد» في مقابل رؤية سابقة تأسيسيّة للعلاقة -متطرّفة أيضًا- هي تلك التي لا ترى في الساحة العالميّة سوى ساحة لصدام الحضارات، بكلّ ما يحمله هذا الصدام من سعي إلى إلغاء الآخر واعتباره مصدر كلّ شرّ.